عوَّدهم ، وتوافقْنَا مَعَهُم على الارتقاء اليهم لـذلكَ البـاذِج الشاهِق ، والشَّـامخ السَّامق ، والمرتدُّون قد وثقوا به ، وبـرؤوا من حول الله وقـوته اليـه ، وأودعوه مـع نُفُوسهم جملة أهْليهم وأمـوالهم ، وبنَوا منـه ـ بما بَـدَا من أحْوالهم ـ أنَّهم يَجدُون في المُجَاولة ويصدقون في المكافحة ، ولا يبغون جهـداً في المكاثـرة والمكـابـرة ، كـاشفين قنـاعَ المبـاداة ، مُبْدِين صفحـة المعـاداة ، فـأجمـع الموحدون ـ أعزهم الله ـ أمره ، واخْلَصُوا لله سرَّهم وجهـرهم لا يجعلون ملجأ سنَدٍ ، الى كثرة عدد وعدد ، بَـلْ فوَّضُـوا أمرهم الى الله تعـالى الذي وعـدهم الفتـح وعـوّدهم النَّصـر ، فـأنهـدنـاهم اليهم يـوم الأثنين الخـامس من شـوال يسلكـون اليهم في مسالـك حـرجـة ، لا يسلكهـا السالـك إلى[1] بَيْن غَيْضَـة وحَـرَجَة ، قـد التفَّتْ بشعرائهـا ، واحتفَّت بشَجْرائهـا ، ذات حَـدَبٍ وآكـام ، لاثباتَ فيها للحـوافِر ولا لـلأقدام ، فـاتصل مشيُهم على مـا أخذوا من أهبَتِهم وأعـدُّوه من عدَّتهم وكتَّبُـوه من كتائبهم ، ورتَّبـوه من رتبهم ، في هـذا السَّفـح [174] الموصوف ، والمرتدون قد أخذُوا عَلَيهم أعالَيه ، وارتكبُـوا دونهم قُنَّته سادين لانقابه ، مُعَوّلين لمَسَالِكه مُخَلِّقين لـلانصبا[2] مِن ذُرَاه ، والانقضـاضِ من عُـلاه ، واستمر بـالموحـدين أعلاهم الله اليُسْـر ونهضت بهم العَزيمـة ، واستقـل بهم التَّصْميم ، والتوكـل يقُـودهم ، والثِّقَـةُ بـالله تحـدوهم ، إلى أن شَـارفوا حـدَّ التسنُّم ، وأفْضُـوا الى بـاب التـوقـل ، وهنـاك تَقفُ الأقـدام عن الإقدام ، وقد اضْطروا الى أوغار لا تمكن من تَرقّيها ، ومقابلة أعداء لا يدري كيف تَـوقّيهـا ، ومشـاهـدة أحْـوال على الجملة لا عَهْـدَ بتلقِّيهـا ، والأعْـداء يتربصون بهم وقوعهم في مثل هذه الحال ، وحصولهم في مثل هـذا المقام ، ويرون أنَّهم بما حَازُوه من عُلوّ مكانِهم ، واستحقُّـوه من ذِوْرة وعرهم ، وأمَّلوه من التصـوب على مَنْ مدَّ اليهم يـدَ مُحَاولـة ، أورام منهم يَسِير مُنـاولة ، أَنَّهم رابحـو الصفقة ، مُـرْتفقوا الخـطَّة ، ولله تَعـالـى من العنايـة بأمْـره مـا يسهـل

(1) هكذا في الأصل والصواب الا.
(2) هنا كلمة لم نهتد لتحقيقها ويشبه أن تكون: «للانصباب».

الصَّعب، ويذلّل الوَعْر ، ويلين الشـديد ، ويقـرّبُ البعيد ، ولمـا انتهى الأمر الى هذا المَوْقِف ، ووصل الى هذا الموصول ، ورأوا صدقَ العزيمـة ، ومضا الصـريمة ، في الصُّعُـود إليهم ، والتَّرقي نحـوهم ، غير متـرقب مكرهم ، ولا متخـوّف وعدهم ، جهـد الأعداء في اللقـاء جهدهم ، وبـذلوا من المكـافحة جميعَ ما عِنْدَهم ، ولم يُبقوا نكاية إلا أيدوها ، وَلا غايةً إلا استوفوها ، من كلِّ [175] فَنّ وعلى كـلِّ وجـه ، فـأفـرغ الله على أوليـائـه الصبـر ، ومكَّن لهم العزم ، وثبت أقدامهم ، وربط على قلوبهم ، وحرَّف الفشل والـرُّعب عنهم ، وأيدهم بروحٍ منه أوطَاهُم بـه، مَسَالِـكَ بَعِيدٌ في العـادةِ أن تَثْبُتَ بِهَا قَـدَم، أو تسعى فيهـا رِجْل. وكـان من أغرب الآيـات أن صارت الخَيْـل فيهـا أنفـذ من الرجُل بل من الطَّير ، فأضحَـوا قلائـد في أجْيادِهـا ، وأطْواقـاً في أجْسَادِهـا ، وأهبَّ الله لهم ريح النَّصر ، ومنحهم أكتاف العدو ، وأخذهم الله هنالك أخذاً تنوع فيهم العذاب ، وتيقَّن به فيهم الانتقام ، فمِن بين مضرج بدمـه ، ومرتـدٍ في مـزلَّة قـدَمِـه ، وفـارٍّ الى حيث لا مُعْتَصم ولا ملجـأ ، الى حيثُ لا وزَر ، واستـولى الموحـدون ـ أعزَّهم الله ـ على الجَبَـل كلِّه ، واستحقُّوه على أهله ، وضربتْ به خيامُهم، ورُفِعَت في أعلاه أعلامُهم ، واقتفوا أثـر الفارين في كـلِّ شعب ، يقتلونَهم قتـلاً ، ويشلونهم شلاً ، لا نـاصر لهم ولا مـانع منهم ، قـد اسلمتْهم ذنـوبُهم ، وأخلفتهم ظنـونهم ، وافضـوا الى جميـع مـا أعـدوه فيـه معهُم ، وكان في العزَّة عليهم مثل أنفسِهِم من حرمهم وفنون أموالهم ، إلى ما كان آوَى اليهم من حُرَم غيرهم وأمْوالهم ، ونفله الله أياهم مغنماً كريماً جليـلاً وعَطاءً جسيماً جزيلاً ، رحمة منْه وفضـلاً ، وإحسانـاً منه وطـولاً . وخلا هـذا الجبـل المذكـور من أهله ، وأضْحَى يبـابـاً بَلقعـاً كـأن لم يَغْيَ بـالأمس عبـرةً للمعتبرين [176] وذكرى للذَّاكرين ، وخاطبـونا ـ أعـزهُم الله ـ بهذه البُشْـرى لحين وقوعها ، مبادرين الى ذلك لقُرب المسافة التي كانت بيْنَنَـا وبَيْنَهم ، فإن مشيَهم الى هذا الغزو وحركتَهم له وتصرفهم فيه ، كان منّا بمرأىٍ ومطلع ، لم ينكتِمْ عن عياننا ، كيف كان ارتقاؤهم اليهم ، وتسنُّمهم نحـوهم ، وعَرَفوا أنهم في اليوم الثاني من هـذا الفتح الكـريم يُوالـون تفتيش زواياهم ؛ والتَّنقيب عن

خبَاياهم ، ففعلوا ذلك وحَصَلُوا منه ما وجدوه ، وأضافوه الى ما غنموه ، ولم يسمع بعد هذا التَّعقيب في التنقيب دعاء داع هنالك ولا إجابة مجيب ، وهؤلاء القوم ومَن انضاف إليهم ممن وقعتْ به هذه الواقعَة ودارتْ عليه الدَّائرة ، هم مقدَّمو غمارة ومستتبعوها ، ومُغووها ومضلوها ، وهم كانوا شوكتَها الناكية ، وثورتها التازية(1) ، وكان قطب رحاهم ، ومدير حربهم ، وقائدهم في يومهم ، والذي انتهى اليه عنوانُ أمرهم ، ذلك الغويّ الشقيّ سُبَع بن منخفاد ، وهذا الجبل هو الذي كان أبلقهم الفرد(2) ، الممتنع على من رَامَه ، المستعصب قديماً على من كاده ، فقد استفتح مَمْنُوعه ، وخلَتْ من الظَّالِمين ربُوعه ، وهُدّت ـ بفَضْل الله عزَّ وجلّ ، وبركة هذا الأميرِ العزيز ـ أصُوله وفروعُ ، كان فلهم وقلهم قد انحجزوا الى أحجار لا تستقل بمنعتهم ، ولا تفي بحمايتهم ، وكان هذا الشقيّ [177] المذكور يوم الفتح قدَ فَرَّ برَأسِه ، ناجياً من ذلك المأزق بحشاشة نفسه ، وقد استبيح أهله وماله ، فسلك سبيل الانجحار ، وأمعن في زوايا الاختفاء والاستتار ، ولما أتى أمر الله تعالى على هذا الجبل وأهله بما ذكرناه ، تنقَّلنا بالموحدين ـ اعزهم الله ـ من المنزل الذي منه توجِّههم الى الفتح ، ونزلنا بهم المنزل الذي خاطبناكم منه ، واتَّصل تتبع هذا الفل ، وأخذ المراصِدِ عليهم ، وتمادَى ذلك وكل الجهات المجاورة لهذا الجَبَل المذكور ممن كانتْ أعيُنهم ناظرة . وآذانهم الى ما يقع مصيغة ، قد رغبوا في الإقالة . وأعلنوا في التوبة . وسعوا في إحراز دمائهم وأموالهم ، وتسويغ برد العافية لهم ، وكل من قرع هذا الباب فهو له مفتوح ، ومن استمنحه ، فهو على عوايده مبذول مَمْنُوح . وفي خلال ذلك وافَى من

(1) نكى : قتل وجرح ينكي نكاية وثورة تازية تازت السهام في الرمية : اهتزت فيها، ولعل الصواب : النازية، أي الواثبة.

(2) حصن السموال بن عادياً، وهو مشرف على تيماء بين الحجاز والشام على رابية من تراب وفيه يقول السموأل :

هو الأبْلَقُ الفرد الذي شاع ذكره   يعز على من رامَهُ ويطول

ياقوت، معجم البلدان ـ انظر دائرة المعارف الإسلامية، أول ص 65.

صُنْع الله الجميل الذي لَمْ يزل يصاحبُ هذا الأمْرَ العزيز في كل مَقام ، ويتكفَّل له في كلّ مبدأ من مبادي ظهوره بأفْضَل خاتمة وأشْرف تمام ، ما جَعَله الله لهذا الفتح العَظِيم كمالاً ، واستوفى به مقاصده العلية استيفاء ، وذلك ان الشقيَّ الغوي لمَّا لم يجدْ نفقاً يُؤويه ، ولا مدخلاً يجنح اليه ، أوى الى بعض تلك الجبال ، واطمأن الى بطانة له من غمارة وثق بإيوائهم له ، واشتمالهم عليه ، مولياً عن أمر الله تعالى ، مكايداً له ، مصمماً على الأعراض عنه ومتربّصاً [178] به من الدوائر ما أوقعه الله به ، فلعناية الله بهذا الأمر العزيز وفق الله تلك البطانة ، وأراهم رشدهم بالتقرُّب الى هذا الأمر العزيز ، والتفادي منه ، والتعدي عن شومه ، والانتزاح عن شرِّه ، وما تحققوا من سوء عاقِبتِه ، فوثبُوا عَليْه واستوثَقُوا منْهُ ووصلوا به مقتاداً برمته ، مشهراً بفضيحته ، مقلداً بعاره ، آيةً لمن أبصره ، وعبرةً لمن نظره ، ومكن الله الموحدين منه فغزى غَزْواً(1) شفى صدور المؤمنين ، وأقرَّ عيون الموحدين ، وبتَّ في أعْضَاء المارقين ، وأطفأ الله به نار الفتنة ، وأخمدَ به ضَرَمَها ، فإنه كان الحاطبَ لها والمسعر لوقودها ، وكمل به هذا الفتح العظيم ، والصنع الجسيم ، ومقدار هذا الفتح المصنف والنصر المفنَّن إذا وفر عليه حقُّه وحقّق له قسطه ، وزن بميزانِه ما لاتقوم به أقوال القائلين ، ولا يبلغ حقيقتَه إطنابُ المطنبين ، لأنه جاء من نفحاتِ رحمة الله تعالى التي يُصيب بها مَن يَشاء من عباده ، والحمدُ لله الذي جَعَل أولياءه ممنُوحين من نَفَحاتِه ، وعظيم عنَايَاته ، بما يَعرفهم اختصاصهم بفَضْله ، وتميُّزهم بتأييدِه ونصْرِه ، ولَهُ الحمدُ كثيراً .

وعرفناكم بذلك مشروحاً لتحمدوا لله تعالى عليه ، وتأخذوا بحظكم منه ، وتعطوه حقَّه من الإشاعةِ ، وتوفوه واجبَه من النشر والإذاعة ، فقد انحسمت به أدواء كانت في حد الإعضال ، [179] وأخمدت نيرانٌ كانت من الفتن في

(1) تذكر بعض المصادر أن رأس سُبَع بن منخفاد حمل إلى مراكش بينما تنقل أخرى أنه حمل إلى فاس، ويظهرُ أن الرواية الثانية نصَّت على فاس باعتبارها كانت الطريق لمراكش.
ابن أبي زرع : القرطاس جزء ثان ص 185.

Moulièras, le maroc inconnu 352.

اصطدام واشتعال ، وستكون آياتُها منبهةً ، وعبرها مذكرة ، يصلح بها الفاسد ، ويستقيم بها المائل ، ونَسألُ الله تعالى أن يوزع شكر آلائه ، وينهض بما حمل من أثقال أمره العزيز وأعبائه ، بفضله وكرمه . والذي نفَّل الله الموحدين أعزَّهم الله من ضروب المغانم والأنفال ، وذلك من البَقَر اثنا عشر ألفاً ، ومن الغنم سبعة وعشرون ألفاً وثلاث مائة ، ومن السبي[1] ثلاثة آلاف وست مائة وسبعة وأربعون ، ومن الدوابّ ستمائة وسبعة[2]عشر وهي الآن متصلة متتابعة ، فله الحمد على ما أولَى أولياءَه من الخَيْر الواسع ، والنَّصر الكريم المتتابع ، لا رَبَّ غيره ، والسلام العميمُ الكريمُ عليكم ورحمة الله وبركاته . كتب في الرابع عشر من شوال سنة ثنتين وستين وخمس مائة .

وهذه الرسالة كافيةٌ بتاريخ فتنة غمارة والفتح فيها فاقرأها . وكتب السيد الأعلى أبو حفص عن نفسه ، صحبة هذا الكتاب الكريم ، معرفاً بالفتح أيضاً ، الى الشيخ الحَافظ الأجل المرحوم أبي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم بما [180] هذه نسختُه :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم من عمر بن أمير المؤمنين ، الى الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم ، أدام الله كرامتَه بتقواه ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبعد حمد الله والثناء عليه ، والصلاة على محمد رسوله وعلى آله ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، والدعا لسيّدنا أمير المؤمنين ولوليّ عهده الأمير الأجل الملك الأسعد أبي يعقوب بدوام التمكين ، والفتح المبين ، فالكتابُ إليكم ، كتب الله لكم نعماً ثرَّة وأعمالاً برَّة ، ـ من مَنْزِل الموحدين أعزّهم الله بجبَل الكواكب ، وفتوحُ الله لأوليائِه متصلةُ النظام ، مؤيِّدة الأعلام ، آخذةً بمجامع الكمال والتمام ، فإنه تبارك وتعالى يسر للموحدين هذه الجبال الصعْبة ،

(1) يعني من الاسرى.

(2) يلاحظ أن ابن صاحب الصلاة هنا يبدأ قراءةَ الاعداد من الأرقام الكبرى، بينما عهدت قراءتها من الأرقام الصغرى حتّى تنسجم مع العادة العربية من البدء بالقراءة من اليمين لليسار: ثلاثمائة وسبعة وعشرون ألفاً، وسبعة وأربعون وستمائة وثلاثة آلاف. . .

والمعاقل الأشِبَة ، التي كان أهلُها قَدْ بطروا وأشروا النِّعمة ، وشقُّوا عصا الجماعة ، وأجابونا عن الفتنة ، فوصَل الموحدون اليهم واستأنوا بهم آخر الأجل في التَّبصرة والتذكرة والاستِنَابة ، فكان منهم من راجَعَ الحقَّ وتَلافاه الله وأخذ بحجزته عن النَّار ، فاولئك نَجحُوا وأحرزوا أموالهم وعيَالهم ، ومن يهد الله فهو المهتدي ، واستمر سايرهم على اللَّجاج والعناد ، وظنوا أن معاقلهم مانعتهم مِنْ أمْرِ الله ، ومن يُضْلِلِ الله فلن تجد له [181] سبيلاً ، وما زَالَ الموحدون يَسْتزلونهم من هِضابِهم ، ويستخرجُونهم من شعابهم ، حتَّى أتوا عليهم قتلاً وسبْياً ، وكان مِنْ آخر ذلك هَذا الجَبَلُ العظيمُ الشان ، المنيف من هذِه الأرض على كلّ مكان ، وكان فيه رأسُ غوايتهم ، وعميدُ ضلالتهم سُبَع بن منخفاد الشقّي مدارُ قوْمه ، ألْحَق الله به أمثالَه ، وكان قد ضم اليه أمَّةً عظيمةً من الأشقياء زَاعِمين أنَّهُم يَعْتَصِمُون من الموحِّدين فيه ، ولا عاصِمَ مِنْ أمْرِ الله إلا مَن رحِمَ ، فاسْتعان الموحدُون بالله وصَمَدوا اليهم وقاتَلوُهم على مَصْعدة قتالاً شديداً أجْهَض الأشقياء عنْه وردَّاهم منه ، وفرَّ الشقي المذكور ، وأَفْلت مِنْ ذلك الهَوْل ، وآوَى الى بَعْض قبائل غمَارة ، فشَرَح الله صدُورَهُم ببركةِ هَذا الأمر العزيز وسَعْدِه ، فأخذوا الشقي وجَاءُوا بِهِ أسِيراً موثوقاً ، فغزي فيه ورُفع جذعُه ، وعفى أثرُه وكمل أمر الله في هذه الجهة ، وانجلت عنها غَيَابَةُ الكُفْر ، وفاض عليها نورُ العَدْل وانسكَبَ فيها غمام الإحسان ، والحمدُ لله ربِّ العَالمين ، وهي نِعْمَةٌ عظمى وفتحٌ أعْظَم يَجب أن يُعرف قَدْرُه ، ويوفي شُكْره ، فخُذوا حظَّكُم من المسرَّةِ بما مَنَح الله إخوانَكم الموحِّدين وخوَّلهم من الخيرات ، وأفاءَ عليهم من المغانِم التي جَلَّ قدرُها ، وعظُم خَطْرها ، حسب ما جرتْ به عوائد الله لِهَذا الأمْرِ وأهْله . جعلنا الله مِمَّن شَكَر [182] نُعْماه ، ونَصَر حِزبه بمنِّه وكَرَمِه ، ووصلَ ـ أعزكم الله ـ كتابكم البر ووقفْنا عليه ، وشكرنا اهتبالَكُم ، واستعنَّا الله لكم ، واستوهبناه لكم الكرامة والإمداد بالتوفيق ، فكذلك توالون المُطالعة ، وتستمرون على أعمال الخَيْر والبر ، والله وليُّ عونكم ، والسلامُ الجزيل عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه . كتب في الرابع عَشَر من شوال سنة ثنتين وستين وخمس مائة .

(منازلة أبي عبد الله بن أبي إبراهيم لحصن لبسة)

وفي أثناء هذه الغزوة المنصورة غزا الشيخ[1] الحافظ الأجل المرحوم أبو عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم حصن لَبَّسة المتوسط بين مدينة أغرناطة ووادي آش ، وكان هذا الحصن قد أسكن فيه محمد بن مردنيش جملةً ذميمة منكية من أحلافه النصارى أهلكهم الله ، أمرهم ان يفاتنوا مِنْه فحص مدينة أغرناطة المذكورة ، يوالوا الإذاية منه عليها ، فكانت شجى في حلقها أذاقتها من الإذاية مر ذَوْقها ، فعزم الشيخ المرحوم في نفسه عزيمةً أعانه الله تعالى عليها وطرق الله بعسكر أغرناطة ورجالها ، ونازَلَه وفتحه غلبةً على النصارى الطاغين في يومه . [183] وغزا جميع مَن كمن في داخله ، ورفع الله بجهاده واجتهاده عظيمَ عُدوانه ، وهَدَمَه وخرَّبه في ساعة من زَمانه ، وانصرف الى أغرناطة ظاهراً مجاهداً ، ولله تعالى ناصراً ، فأعلم الحضرة العلية بفعله وغزوه وجدِّه ، فجاوبه الأمير الأجل الرضي الأعدل أبو يعقوب رضى الله بهذه الرسالة الكريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمد رسوله وعلى آله من الأمير يوسفَ بن أمير المؤمنين أيّدهم الله بنَصْره ، وأمدهم بمعونته ، الى الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم والطلبة الموحدين باغرناطة ، أكرمهم الله بتقواه ، ووفَّقهُم لما يرضاه ، سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه ، أمَّا بعد : فإنا نحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائِه ونعمِه ، ونصلي على محمد نبيِّه ورسوله ، ونستَرْضيه عن الإمام المعصوم ، المهدي المَعلوم ، القائم بأمْرِ الله تعالى والداعي الى سبيله ، ونَصِلُ الدُّعاء لخليفة سيِّدنا أميرِ المُؤمنين المنتَهض بتَتْميم أمره تعالى وتكميله ، وكتبناه إليكم - أتمَّ الله نعمته عليكم - من حضرة مراكش ، حَرَسها الله ، والذي نُوصيكم به تقوَى الله تعالى والعمل بطاعته ، والاسْتعانة به

(1) تحت كلمة الشيخ الحافظ يوجد إلحاق بأحرف صغيرة منعبة يشبه أن تكون: «دامت عصمته» أو دعاء من هذا القبيل.

والتوكل عليه وقد وصلت الينا مكاتباتُكم ووقفْنَا منها على [184] ما ذكرتُم من استبشاركم بما منَّ الله تعالى لأولياء أمره من الفتح والنصر ، وبمَا سَنَّاه الله للموحدين هُناك من غزو المجسّمين[1] ، واستنقاذِ ما كانُوا اغتنموه وانتِظام أموركم كلّها على الخَيْر والصلاح ، وتمكّن أسْباب الأمن والدّعة ، والحمد لله على ما مَنَح من صُنعه الكَريم ، وفَضْله العَمِيم ، فجدّدُوا شكْرَ الله تعالى على آلائِهِ ، وتوكّلوا عليه واسْتَمرُّوا بالشُّكر المزيد من فضله ، والمعتادَ من رحمتِه ، وهُوَ الكفيل تعالى بإنجاد أوْليائه ، وإعزاز حزْبه وجنْدِه ، والّذي ذكرتُمُوه من اخْتِلال أحوال المجسِّمين الشرقِيين وتبدُّد شمْلهم ، فتِلكم عادة الله تعالى فيمَن ناوَى أمرَه وأعْرَضَ عن جَانِبه ، والله يُنْجِزُ فِيهم وَعْدَه ، لا ربَّ غيرُه ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله . كتب في التّاسع من ذي الحجة سنة ثنتين وستين وخمس مائة .

ولما انصرف الأميرُ الأجل الأعدل من فتح جبال غُمارة غالباً منصوراً الى حضرة مراكش حرسها الله قال أبو عمر بن حربون قصيدةً حسنة يمدحه ويهنئه على استلائِه على أعدائه وقتْلِه لهم وهيَ هَذِهِ : (كامل)

[185] بَلَجَت[2] بِكُم حُجَجُ ، الكِتاب المنزلِ ... ونُصِرتُم نصْر النبي المُرْسَلِ
وجلوتُم غمراتِ كلّ دَجُنَّةٍ ... لو أنَّ صُبْحاً رَاقها لم تَنْجَلِ
وجنبتُم هُوجَ الرِّياحِ جَنائِبا ... وسَرَيْتُم إذْ نامَ لِيلُ الهواجلِ
وسَحَبْتُم - واللهُ يشْكُر سعْيَكُم - ... في عرْصَةِ الأعداء ذيل الجحْفلِ

(1) كان المهدي يسمي أصحابه بالموحدين ويسمي خصومه المرابطين بالمجسّمة لأنهم لمّا أخذوا بالعدول عن التأويل للمتشابه من القرآن والحديث فقد صاروا - في نظره - مجسمة وهذا كان يغالط في ذلك ويصرح بأن جهاد المرابطين أوجب من جهاد الكفار وتلك سفسطة من المهدي لم تلبث أن تكشفت للناس.
الاستقصا ثان ص 103. راجع صفحة 216.

(2) رواها ابنُ عذاري بلقت أو بلغَتْ: البيان المغرب 57.

جيْشٌ يغُصُّ بـه مناديـحُ الفَلَى   فَيحارُ مِنْها مَجْهلٌ في مَجْهل
طـابَتْ لكُم ريحُ الجلادِ كأنما   يتعرَّفُون هُناك عَرْف المَنْدَل
مـا زِلتُم تُقرُون يومْ نـزالِهـا   بالصَّبْر أضياف الخُطُوب النُزَّل
حتَّى تجَلَّتْ في منصَّةِ سَعْدِكُم   عذْرَاء ترفُل في رِدَاء القَسْطَل[1]
شَنْعَاء إن سَمِع العدوُّ بذِكْرِهَا   دَبَّ الضراءُ لَهَا دَبيبَ الأقـزَل[2]
حتَّى الذِي هو خَلفَ بَحْرٍ زَاخِرٍ   ستصكُّ مسمَعه بِهَذَا الأزْمَل
لو تَسْتمدون النُّجُومَ على العِدَى   جَيْشاً لَمَا دُعِي السِّمَاك بأعْزَل
أورَدْتموهم للمهنَّدِ لُجَّةً   جَمَعَت جَوَاهِرَهَا بنَانُ الصَيْقَل
لَمَّا أتَى الجبلَ المقدَّسَ مِنكُم   خرَّتْ لسَطوتِهِ رَوَاسي الأجبُل
مِنْ كُلِّ مُبْيَضِّ القَذَال كَأنَّمَا   رَكِبُوا بِهِ مَتْنَ الحِصَانِ الأرحلَ
نَظَم النجوم قلادةً في نَحْرِهِ   واجتابَ إيراد الغَمَامِ المُسْبل
فَرَقَيْتُمُ مِنْهَا مَرَاقِي لم تَكَد   تَرْقَى بِهَا قدم الصّبا والشَّمْأل
ووطئتُم جَبَلَ الكواكب وطْأةً   هُدَّتْ لصَعْقَتِها مناكِبُ يَذْبُل[3]
والتاجُ نورُ الله يُشْرِق فوقَه   من عزَّةِ المُلْكِ الأجلِّ الأفضلِ
[186] فتبرَّأتْ تِلك المَعاقِلُ مِنْهُمُ   والعَقْلُ لَوْ رُزِقوه- أمنعُ مَعْقِل
ما غرَّهُم بخَليفةِ الله الَّذِي   مَا لامْرئٍ عَنْ أَمْرِه من مَعْدل
ضَرَبَ الشقاءُ وجوهَهُم بضَلالةٍ   تاهَتْ بِهِم في حَوز لَيْلٍ أليل
واستعجَلُوا أمْر الالاهِ فجاءَهُم   والوَيْلُ كلّ الويل للمستعجِل
عَجَباً لَهَا من فتنةٍ قَدْ سوَّلت   لمُطوِّقاتِ الأيكِ صيدَ الأجْدَل
بَطِشَتْ بهم كفُّ الرَّدَى لَمَا أَبَوا   أن يقبْلُوا عفْوَ الصَّفُوح المُفضِل
وغَدَا غويُّهم برأسِ مُنيفةٍ   يَهْوي الى دَرك الجَحِيمَ الأسفَلَ

(1) القسطل في الأصل الغُبار، ويكنى بها عن الحرب: قال الشنفري:
لئن تبتئس بالشنفري ام قسطل   لما اغتبطت بالشنفري قبل اطول
(2) القزل: نوع من العرج.
(3) يذبل: جبل في بلاد نجد.

يُمسي ويصُبحُ في ذُؤابَة منبَرٍ   يَعِظُ العُظَاةَ ومَالَهُ من مِقْوَل
جَاءُوا بهِ بَابَ الرواق[1] يقادُ في   بُرْد الهَوَان مقادةَ المُسْتَرْذَل
لله كفٌّ طوحتِه بضَرْبَةٍ   رفعَتْه عَنْ سِمَةِ الأخَسّ الأنْذَل
يا ذُلَّ شَقْي الأشقِياء وخسرَهُم   إذ حُلِّئُوا عن وِرْدِ هَذَا المَنْهَل
نُورٌ أضاء بمغْرِبٍ وبمشْرِقٍ   ، لم تَعْمَ عَنْه غيرُ عَيْن مضلل
الأمْرُ أمْرُ الله قد حفَّتْ بِهِ   في اللَّوح أقلامُ القَضَاء الفَيْصَل
صَدَع الهُدَى فيه بنصٍّ واضِحٍ   يُعْشِي سَنَاهُ لواحظَ المتأوِّلِ
رَضِيَ الإلاهُ عن الإمامِ المصطفَى   وسقَتْه أخلاف[2] السَّحَاب الهُطَّل
الْقَى لسيِّدِنَا الخليفة عِبْئَهَا[3]   فَزَعِ الشجاعِ الى الحُسَام المقصل
وقَضَى لنَجْلِهُم الكريم بحِفْظِهَا   حتى إلَى اليَوْم العَمَاس الأهْوَل
فالآن قد هَدَأت وقرَّ قرارُها   عِنْدَ التقي الزَّاهِدِ المُتَبَتِّلِ
لم تُصبْه الدُّنْيا بِبهْجَتِهَا وقَدْ   جعلَتْ تُغَازِلُهُ بعيني مُغْزلِ
[187] قرَّتْ بِهِ عَيْنُ الخِلافَةِ إذْ رأت   قسْطاً سَهَا بِيَدِ الإمَام الأعْدَل
إن الخليفةَ إن تأخَّر عَصْرُه   فقَدِ احْتَوَى خلق الزَّمان الأول
شَرْخُ الشَّباب ودَوْلَةٌ قَدْ أقبلتْ   يا حسنَه من مُقبلٍ في مُقْبل
مُلْك تسحُّ على الوَرَى بَرَكاتُه   فتعمُّ سائلَها ومَنْ لمْ يَسْألِ
أنَّى تُساجِله البُحُور، وإنَّهَا   في فَيْضِ جَدْوَاه كمِثْلِ الجَدْوَلِ
هنّئت مولانَا أبا يَعقُوب مَا   خولت من فَتْح اغرَّ محجَّل
قلَّدت جِيدَ المُلْك منه تَمِيمَةً   ما إن يَبيت لَهَا بلَيْلِ الأوْجَل
قَدْ جَاءتِ الدُّنيا إلَيْك بوَفْرِها[4]   واستقبَلَتْك بوجْهِهَا المتهَلِّلِ
والحضْرة العَلْيَاء يَرْقبُ طرفُهَا   منكم سَنَى البَدْرِ المُنِير الأكْمَل

(1) ويقصد دون شك باب القبة التي نَصَبها «الأميرُ الأعدل» في جبال غمارة.
(2) انواء، ابن عذاري ص 58.
(3) عهده، المصدر السابق.
(4) لم نتبينّ بالضبط هذه الكلمة، ولعلَّها: بَوْفرها، أن بوفِدْها.



حَصِـر اللِّسَانُ وتَـاه في أوْصَـافِكُم فـإليكُمـوهـا عِـذْرة المتحَمِّـلِ

وكان الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين قد توجه بالأمر العزيز أدامه الله ومعه عسكر مبارك من الموحدين أعزهم الله إلى جهة المرتدين من صنهاجة بجهة القلعة على ما تقدم الذِّكر به في الرسالة الكريمة المكتوبة في هذا التاريخ[1].

وكان الشيخ الأجل المرحوم أبو حفص بمن معه من العسكر من الموحدين أعزهم الله قد تقدم بجهةٍ أخرى من بلاد صنهاجة المذكورين ورسم لهم من العمل ما وُدعوا عليه فنهضوا واجتمعوا وجدُّوا له في غزوهم وسعدوا ، فلما فتح الله جبال غُمارة ، واستُوصلوا سبياً وقتلاً ، وقتل شقيهم الغوي [188] على ما شرح في الرسالة الكريمة ، واتصل خبر ذلك الفتح العظيم بصنهاجة ومن جاورهم من أهل الجبال سُقِط ما في أيديهم ورغبوا بجميعهم ، وتطارحوا على الموحدين أعزهم الله في قبول التوبة ، وتضرعوا في الحَوْبة ، فقبل الشيخ الأجل أبو حفص رغبتهم ، واستقال حوبتهم ، وأعلم الأمر العزيز بذلك ، فصفح عنهم ، فحين انصرف الأمير الرضي الأعدلي إلى مراكش من غمارة انصرف الشيخ الأجل أبو حفص والشيخ أبو سعيد بمن كان معهم من العساكر المؤيدة ، واعلموا بما اتفق من الطوع والمتاب ، وبما كان من الظفر والبشر وحسن المناب ، وعرفوا بطوع المنتزي[2] بحصن أسمار[3] ونزوله عنه ، وتمكين الموحدين اعزهم الله عنه .

(1) راجع صفحة 162 من المن بالإمامة.

(2) كتبت كلمة المنتزي في المخطوط على شكل أوهم الأستاذ ويسي فقرأه: المنتي (Al Munti) وقد ملت إلى قراءته أول الأمر هكذا: «المفتري» على أنه منحدر من أسرة حاميم بن من الله الذي ادعى النبوة في جبال غمارة سنة 313، لكن بعد أن وقفت في (أكسفورد) على نفس المخطوط تأكدت من أنه «المنتزي» أي الواثب المتسلق إلى الحصن المذكور.
الاستبصار ص 191 ـ الاستقصا أول ص 192. Huici page 251.

(3) لم نعثر على تحقيق موقع هذا الحصن بالضبط (Asmar) ولم نجد له ذكراً بين الحصون المتصلة بجبال الكواكب التي ذكرها الادريسي من أمثال حصن مسطاسة، حصن أسلان. . . ويظهر أن هذا الحصن هو الذي يعْنيه ابن حربون في شعره:
وَلَقَلَّ مَا أعطى مقادَته الذي أمْسَى سميرَ الفرقدين بسمَّرَا ▬

فقال أبو عمر بن حربون[1] قصيدة حسنة يمدح بها الأمير الأجل الأعدل ويهنئه وهي هذه : (كامل)

وجَـدَ الـنَّسِيمُ ثنـاءَكمْ فتـعـطَّرَا ورأى الـوشيحُ مضاءَكم فتأطَّـرا[2]
وتبـسمتْ أيـامُكم عَـنْ انعُـمَ سمِعَ الغَمَام بذِكْرها فاسْتَعْبَرا
وجَـرَى لَـهَـا مُـلك الـسَّـعـادةِ بـالَّـتِي جَـثَـمت عـلى كِـسْرَى[3] وفـلَّتْ قَـيْـصـرا[4]
سلطان وضاحُ الجَبِين متـوَّجُ بتقى نقيِّ الجنْب أشْعَثَ أغْبَرا
[189] والدِّينُ والدُّنيا معاً قد ردِّيَا بـردائِه الفـاروقَ والإسكَنْـدَرا
جَمَعَ الإلاه بِهِ الـوَرَى في وَاحِدٍ فَتَبَارَكَ الـرَّحْمَنُ مَـاذَا قَـدَّرَا
وَأَتَى بِـهِ الزَّمَنُ الأخيـرُ مُقَدَّماً فكَـأنَّمَا الفَلَكُ المُـدَارُ تَقَهْقَرَا
ملكٌ تَضَعْضَعَتِ الهِضَـابُ لِبأسِـه وغَـدَا لـهُ الـزَّمَن العَنُـود مسخَّـراً
فـالـطَّودُ لَيْسَ ثباتُـه عن جِبْلَةٍ لـكـن لـهـيـئـتِـه أزَمَّ ووقَّـرا
لإمامِ عدلٍ بـالعبادةِ نـاشيءٍ لم يصْبُ مُذْ عَقَدت يَداه المِئْزَرا
فـالمـاءُ لـو القى طهارةَ ثَـوْبِـهِ في مُزْنَـةٍ لغَـدَا بهـا متـطهِّـراً
يَجْلُو الـظَّلامَ بنُـور غـرَّتـه الَّتي فضحَتْ أشِعَّتُهـا الصَّبـاحَ الأنَـورا
ضلَّت مَسَـاعي معْشـرٍ لم يَنصِبُـوا فيهم لـدعـوتِـه العليـةِ مِنْبَـرا
لمـا دَعَـاهُ الـدِّينُ دعـوةَ مُـرهَـق لَـبَّـاه مـنـصـورَ الـلواء مظفَّرا
فـاليكَ عن صنهاجةٍ مـا قَـدْرُهـا في مُلك مَن يَغْزُو المسيحَ الأعْورَا[5]

▬ وقد يكونُ أيضاً مقصود ابن عبد الحَكَم حينما يقول:
أما كفتْهم بسمار وتادلةٍ ومَا وراءَهُما تلك الأفاعيلِ .
انظر ص 189 - 287. Huici page 231.

(1) ابن عذاري في البيان يكنيه بأبي بكر ويذكر أنه حزبون بالزاي. . . ولا يخفى ما فيه. . . أنظر التعليق رقم 1 ص 175 ـ ابن عذاري ص 59.

(2) يرويه في البيان المغرب هكذا: الوسيج. . . فتفطرا. صفحة 59.

(3) كسرى Cosroes لقب لكل ملك من ملوك الفرس.

(4) قيصر Cesar لقب لكل ملك من ملوك الروم.

(5) المسيح الأعور هو الدجال الذي سيظهر في آخر الزمان.

عـادُوا بحِلْم لـو عَـداهُم أصْبَحُوا   عـظةً لمَن سَمِـع الحـديث وأبْصَـرا
وتبـرّأت منْهُم ذُرى هـضبـاتِهِـم   وأتَى الحضيض بـفلّهـم مُسْتَعْـذِرا
صُمُّـوا عن الدَّاعي إلى أن أسْمِعُوا   لـوقُوع بـأسِك في غُمَارة جَـرْجَـرا
فتقـدَّمُـوا مـستسْلِمِين ولَـوْ أبَـوْا   لـم يَستَـطِيعُـوا عـنكُمُ متـأخَّـرا
ولقـلَّ مَـا أعْـطَى مقادتَـه الـذي   أمُسَى سمير الفرقـدين بسمَّـرا[1]
لم يَنْـجُ مِنْ سَـطْواتِكـم إلا امـرُؤٌ   قـد جـاءكم من ذَنْبِـه مُسْتَغـفـرا
أوْلَى لَهُم من بَـأس كـلّ غَضَنْفَـر   أقْصَى مُنـاه أنْ يَـزُورَ غَضَـنْفَـرا
يَهْـوى اللواء من العَجَاج مُمَسَّكـاً   والسَّـابريُّ من النجيـح مُزَعْفَـرا
[190]وتَـخَـالُ صَـفْـحَـة كـل نَـهْـرِ مـرهـفـاً
وتـودُّ كـلّ قَـضيـب دَوح أسْـمَـرا
قَـوْمٌ إذا سمتِ النُّفُـوس لـقِنْيَـةٍ   لـم يـقـتـنـوا إلا قَـنـا وسَـنَـوَّرا
وَرَمَـوْا بـأنفسِهم مَـرامِي غـريـةً   جَعَلُوا القِسِيَّ لهـا الجيـاد الضُّمَّـرا
يـا مَن تَـواضعَتِ المُـلُوكُ لأمْـرِهِ   وَكَفَى لَـهَـا عِـزّاً بِـذَاكَ ومَفْـخَـرا
بيَّضْتَ وجـوه[2] الدِّين منك بعَـزْمَـةٍ   لبِسَ الحُسَـامُ لَهَـا الـرّداء الأحْمَـرا
تُـلْفِي لَـهَـا أثـراً بـكـلّ تَـنُـوفَـةٍ   وتَـرَى لَهَـا في كُـلِّ أفْقٍ عَتْبَـرَا
أشبهتَ والـدَكَ الـرِّضَى في هَـدْيـهِ   فقـرنْتَ بـالغَـزْو العُـرَاة والـقِـرا
لَـوْلا المحبَّـةُ في الجِهَـادِ وأجْـرِهِ   لَكَفَـاكَ سَعْـدُكَ أنْ تجهّـز عَسْكَـرا
أبْشِـر فكـلُّ صبـاح يـومٍ إنَّمَـا   يـأتِيـكَ بـالفَتْـحِ المُبينَ مُبَشِّـراً
وَأَصِـخْ لـذكـرِ « اليوسفيـة »[3] إنَّهَـا   مَنعت مَغَـانِي الشعبِ من أن تُـذْكَـرا
دبَّجْتَهَـا من حُسْنِ خلقِـكِ جنَّـةً   وسقيتَهـا مِنْ جُـودِ كفّـك كَـوثـرا

(1) يظهر أن المقصود حصن أسمار المتقدم الذكر ص 250 ولعله هو نفس المقصود من (اسمار) راجع التعليق رقم 3 ص 250.

(2) كذا في الأصل، ولعل الصواب (وجه) حتى يستقيم الوزن.

(3) في ابن عذاري: واضح لذكر اليوسفية، لكن ماذا يقصد باليوسفية هل يعني بها مدينة مراكش وتكون النسبة إلى الخليفة نفسه. هذا وتوجد الآن بالمغرب قرية تحمل اسم «اليوسفية» لكنها حديثة.

فـإذا سَقِيطُ الـظِلِّ رَفَّ بِـزَهْـرِهَـا   لَقَـطتْ بِهَـا كفُّ النَّسِيم الجَـوْهَـرا
لَـوْ أنَّـهَـا مِـمَّـا تـقـدَّم عَـصْـرُه   لَقَلَى الـوليدُ الجَعْفـريّ وجَعْفـرا[1]
كـانـتْ كـظهْـرِ الـتُّـرس مَـرْيـاً صَـحْـصَـحـاً
فـنـسـجـتَـهـا لِـلْـحِـيـنِ رَوضـاً أخْـضَـرَا
وتَخيَّـل الخـطِّيُ حُسْنَ ثِمَـارِهَـا   فغَـدا بَـرأس دَعِيّـهِم قَـدْ أثْمَـرا
جـاءت قَـرِيـحـتُـكُـم بـكُـلِّ عَـجِـيـبَـةٍ
أعْـيَـتْ عَـلَـى الألْـبَـابِ أن تَـتَـصَـوَّرا
فـإذَا الَّـذي أدْركتُمـوه بَـدِيـهَـةً   قَـدْ تـاه فيـه الألْمَعِـيُّ مُفَكِّـرا
جلَّتْ عُـلالكُم أن يُحـاطَ بـوصْفِهَـا   حتَّى تَسَـاوَى مَنْ أطَـالَ وقَصَّـرا !
فـاليكمُـوهـا إن أُعيـرت لحـظةً   خجلت فـاغـدقَتِ القِنَـاع تَخَفُّـرا
[191] حجَّتْك جاعلةً يمينك رُكْنَها[2]   وجنابَك الخَضِل المَرِيـع المِشْعَرا[3]

وكـان السيـد الأعلى أبـو حفص رضي الله عنـه قـد تحـرّك من حضـرة مراكش الى غزوة المنـافقين المرتـدين بالجبـل سنة ثنتين وستين وخمس مـائة المؤرخة ففتح الله له شره وقـطعه ، وسهـل له وعـره أجمعه ، وغـزا المنافقين المرتدّين وانصرف منصوراً ، سالماً موفوراً .

(1) يعني بالجعفري قصر المتوكل العباسي قرب مدينة سر من رأى، وما تزال الى الآن بعض من أطلاله على ما رأيت، كما انه يعني بجعفر صاحب القصر المذكور الملقب بالمتوكل، أما الوليد فلم أهتد للقصد منه، وربما كان يعني به الصفة لا العلمية أي الطفل الوليد، والشاعر يهدف دون شك إلى القول بأن «اليوسفية» التي دُبِّجت من حسن خلف الخليفة وسقيت من كوثر كفه كانت تخجل مباني الأولين من ملوك بني العباس، ولذلك فإن الفرق بينها وبين تلك المباني واضحة للأطفال بلْه الرجال الذين يميِّزون. . . فَلَوْ رأى الوليد اليوسفية لأبغض قصور جعفر العباسي. إقرأ صفحة 209.

(2) تلميح الركن اليماني أحد أركان الكعبة، ويذكر أن رجلاً من اليَمَن كان هو الذي بناه، وانشدوا لبعض أهل اليمن:

لنـا الـركن مـن بيْـتِ الحـرام وراثـة   بـقـيـة مـا أبْـقَـى أبَيٌّ بـنُ سـالم

(3) يعني المشعر الحرام وهو جبل بآخر المزدلفة واسمه قزح.

فقال أبو عمر أحمد بن حربون الشّلبي المذكور يهنئه على ذلك ويمدحه: (وافر)

بسعدكُم دَنَا الأمَل القَصِيُّ ... ولولاكُم لَمَا دان العَصِيُّ
هُوَ الفتحُ الّذي جَلّى الدّيَاجي ... وَطَار بِذِكْرِهِ الخَبَر الجَلِيُّ
ملأت الخافقين[1] بِهِ سُروراً ... وأنتَ بمثله أبَداً مَلِيُّ
فقدْ وَرِيتْ زِنَادُ الدِّين مِنْكُم ... بماضي الغَرْب[2] لَيسَ لَهُ كَفِيُّ :
وقرَّ خليفةُ الرَّحمنِ عيْناً ... بِمَا سَنَّاه سعْيكم الزَّكِيُّ
نضى مِنْكُم لِنَصْر الدِّين سَيفاً ... يفدِّيه الحُسَامُ المَشْرفيُّ
اتيتَ بها مشهرة تَهادَى ... كما برعت منصَّتها الهَدِيُّ
[192] فَقُدَّ من العَجاج لَهَا قَمِيصٌ ... وصِيغ من الحَديد لَهَا حُلِيُّ
ولم يَبْعُدْ عليك مَدَى مُنِيفٌ ... يُحلّق دُونَ حَبْوته الحنيُّ
قليلُ مَنابِت السَّعَفات أصْغى ... الى الجَوْزاء فهْو لها نَجِيُّ
سَمَوتَ الى ذُؤابتِه بعَزْمٍ ... بمِثل عِرَاره يفري الفَرِيُّ
ولم تَشْغَل بذاك الهَوْل بالاً ... كأنَّ رماح عاصِيكم عِصِيُّ !
تبُتُّ وقد تخاذل كلُّ شَهْمٍ ... فما عرف الجَبَانُ ولا الكَمِيُّ
فما سَمِعُوا بأربَط مِنْكَ جأشاً ... وقد فنيت من العَلَق الفنيُّ
تَنَادَوا يوم مُعْضِلةٍ نادٍ ... فلبَّ منك طبُّ أحْوَذيُّ[3]
وألقتْ بركَها أو حَاولته ... فجَلَّاهَا الهُمَام الهِبْرِزيُّ
رمُوا بشَرّ نَبْتِ الكفَّيْنِ أدْنَى ... مخالبه السِّنَانُ الصلّبيُّ
إذا لَمح الفريسة لَمْ يُهَجْهِجْ ... بِهِ عَنْ أخذها إلاّ شَقِيُّ
أسيِّدنا أبَا حَفْصٍ هَناكُم ... ويَهْنى الدِّين فتحكُم الهَنِيُّ

(1) الخافقان: المشرق والمغرب.
(2) غرب كل شيء: حده يعني حد السيف.
(3) سقطت بعض الحروف للناسخ ولذلك نلاحظ اختلال الوزن ولعل الأصل:
تنادوا يوم مُعْضلةٍ بناد....

ولا زالتْ صَوارِمُك المَواضِي ... وفيها مِن دِماء عِداك رِيُّ
إذا الهَيْجا بِبأسِكُم ادلَهَمَّت ... أنارَ بنُور بِشْركُم النَّدِيُّ
تَغايرُ فِيكُم هذي اللَّيالي ... فيحسُد فيكم الصبحَ العَشِيُّ
إذا ما رامَ وصفَكُم بَلِيغٌ ... أجَرَّ لسانَه حَصَرٌ وعِيُّ
وكَيْفَ يَطُولُ بَاعُ الوَصْفِ فِيمَا ... يقصِّر عَنْ مَدَاه الأعوجيُّ
عَلَى ذَاكُم قَدُونَكُم مَديحاً ... يَرفُّ بِرَوضِه الزَّهْر الحَيِيُّ

[193] وكتب أبو عُمَر المذكور الى السيد الأعلى أبي حفص يَسْتَأذنه في المشي الى بنيه بشِلب، وكان ملتزماً عنده يكتب له مع الكتاب: (البسيط)

يا خَيْرَ مَنْ عبد الرحمنَ، عبدُكُم ... يشْكو اليكم فراقَ الأهْلِ والولد
فإن أذنْتُم لَهُ في أن يُطالِعَهم ... فهذِه دَارُهم مِنْه عَلَى صَدَدِ
ولَيْس ذلك ببدع من مكارمِهِم ... فكَم يَدٍ قَدْ شفعتُم عِنْدَها بِيَد
يا بنَ الخَليفةِ قَدْ ألبستني نعماً ... أذْكَتْ بقلب عدوِّي جَمْرةَ الحَسَدَ
فإن أأبْ والرِّضا مِنكم يُصَاحِبُني ... فلستُ أرْهَبُ خَطْباً آخرَ الأبَدِ

وكَتَب إليه أيضاً مع نَثْرٍ من الكلام: (بسيط)

هِبْني نَبَتْ بي أوْطاني لبُعْدِكُم ... أفي جِوَارِكُم ينْبُو بي الوَطَن ؟
ولَيْسَتْ لي حرمة دنْيا أمتُّ بهَا ... إلّا الذي أوجبْتَه منكُم المِنَنُ

وفي هذه الغَزْوةِ السَّعِيدة غزوة الجَبَل، أمَر السيد الأعلى أبو حفْص رضي الله عنه أبا عمر بن حربون أن يَصْنَع قصيدة شعر على لسانه يتشوق فيها إلى أخيه الأمير الأجل الأعدل أبي يعقوب رضي الله عنهم وذلك في سنة ثنتين وستين وخمس مائة [194] فقال أبو عمر المذكور: (وافر)

سلامٌ أيها المَلِك الهُمَامُ ... على نَادِيك دَامَ له السَّلامُ
ولا زالتْ لكَ الأيامُ سِلْماً ... وصبَّ عَلَى أعاديك السَّلامُ
فأنتَ إمام هذا الخَلْقِ طُرّاً ... متى ما زال لا زال الإمَام

بكُم تتكشَّفُ الغَمَّاءُ عَنْهُم　　وَيَنْقَعُ غلة الأرض الغَمَام
فلولاكُم لَكَان الدَّهْر ألْوَى　　جموعاً لا يُنَهْنِهُه لِجَامَ
ولَوْلاَ دولةٌ أيَّدْتُمُوها　　لما عُرِفَ الحَلاَل وَلاَ الحَرام
ولا هَطَلتْ عَلَى الأرض الغَوادِي　　ولا سَجَعت على الدوح الحَمَام
سهِرتَ اللَّيْلَ في طَلَبِ المَعَالي　　ونام بِيُمْنِ دَعْوتِك الأنَام
يعُودُ بذكْرك الرعديدُ شَهْماً　　ويمضي باسْمِك السَّيْف الكَهَام
ويكسِبُ حمدُك الأفواه طيباً　　فتحسده الأراكة والبَشَام
أرَى حجج الأعادي داحِضات　　وقد أدلَى بحجَّتك الحُسام
ادلتُم كلَّ جبَّار عَنِيدٍ　　فقد ذهَب التخمُّطُ والعُرَام
وليّ الله أنجحتِ المَسَاعي　　بسَعْدِكم وقرطستِ السّهامَ
وحكِّمتِ الأمُورُ عَلَى رِضَاكُم　　وتَمَّ لكم على الزَّمَنِ احْتِكَام
وسِيمَ الخَسْفُ كلَّ أخِي عِنَادٍ　　ودان لأمركم حَامُ وسَامُ[1]
فقد بسَمتْ ثغُورٌ عن ثُغُورٍ　　وحُقَّ لَهَا بدَعْوتِك ابْتِسَام
جلونَاهَا وُجُوهاً نَيِّرَاتٍ　　وقد غطَّى سَنَى الشَّمْسِ القَتَام
وخَاصمْنا بألْسِنةِ العَوالِي　　فكان الفَلْجُ وانْقَطَعَ الخِصَامُ
[195] فَنَحْنُ لِمَن يُوالِيكم شهادُ　　ونَحْن لمَنْ يُعاديكم سِمَام
سَلِ الجَبَل المكرَّم[2] حيثُ ضَاهَتْ　　عبابَ البَحْر أنعمُك الجِسَامُ
تلقَّتنا بأشواقٍ اليكُم　　مشاهِدُه المُقدَّسَةُ العِظَام
تطلع نحوكم حبّاً ووُدّاً　　كَما يَتَطلَّعُ البَلَدُ[3] الحَرَامَ
جنبناها بيُمنِكُم كِرَاماً　　على صَهَواتِها عربٌ كِرَام
إذا انْتَاشُوا رماحَهم تدَلَّى　　أحمُّ النَّقْع وانحطَّ الحِمَام

(1) حام وسام ابنان من بني نوح عليه السلام. ويُعتبر حام أباً للسُّود كما يعتبر سام أباً للبيض، فالقصدُ إذن أن البيض والسود جميعاً دانوا لحُكمه!.
ابن خلدون: العبر، سادس ص 185.
(2) يعني بالجبل المكرم: جبل الكواكب المتقدم الذكر.
(3) يعني بالبلد الحرام: مكة، والبلد يذكر ويؤنث كما لا يخفى..

أُباة الضَّيْم إن أمرُوا بأمْرٍ　　فكلُّ عَزِيز كفر مُسْتَضام
إذَا قَادتْهُم أبْنَاءُ قَيسٍ　　فلا لخْمٌ تُعَدُّ ولا جُذَامُ[1]
لَهَاميمُ العَطَايَا لَمْ يَزالُوا　　يُلَفُّ عَلَيهم الجَيْشُ اللَّهَام
ألا لله منهُم كلُّ ذِمْرٍ　　يقبِّل سيفَه الموتُ الزُّؤامُ
يَهشُّ الى لِقَاء القِرْن حَتى　　كأنَّ الطَّعْنَ بينَهُمَا ذِمَامُ
يضمُّ الى العشيرةِ كلَّ خَيْر　　كَما نجَّى عشِيرتَه ضِمَام
قَفَلْنَا شيِّقين الى سَنَاكُم　　تَبَارى في السموم بنا السَّمام
إذا الصنّير[2] عمَّم كلَّ هَضْبٍ　　ومال بأنفِه مِنْه رَغَامُ
حَثَثَنَاهَا يجُوبُ بنَا المَوامِي　　لِكَيِ يُشْفَى بِقُرْبكُم الأوَامُ
ولم نَذْكُرْك في الظَّلمَاء إلاَّ　　تَكشَّفَ عِنْدَ ذكرِكُم الظَّلامُ
يَطُولُ بنَا الزَّمانُ فكلُّ يَوْمٍ　　يمُرُّ ولا نَرَاكم فهْوَ عَام !
تبسَّمُ عنكُم هَذِي اللَّيَالي　　كما ابتسمتْ عَنِ الزَّهْر الكمَامُ

[196] حدَّثني من حضر في مجلس الأمير الإمام أبي يعقوب رضي الله عنه قال : لما أنشدت هذه القصيدة الفريدة المُنْبِية عن صفاء الضمائر ، وخلوص الإخاء في السراير ، من السيد الأعلى أبي حفص الى الحضرة العلية رأينا وجْه الأمير قد انشَرح مُحَيَّاه ، وانصح عليها ، وتهلَّل سروراً وبشراً ، وتخيَّلْنا وجهه من نوره بدْراً ، فقام كلّ من كان في مجلسه العالي من الموحّدين أعزهم الله من طلبة الحضر ، وقبَّلُوا يده وبايعوه ، وأجزل العطاء لقائلها، واشتملت عليه البركات من شمايلها ، وانصرف السيد الأعلى ظافراً سالماً ناصراً .

(1) لخم: حي من اليمن، ومنهم كانت ملوك العرب في الجاهلية وهم آل عمرو بن عدي بن نصر اللخمي، وجذام كذلك قبيلة من اليمن تنْزِل بجبال حسمى.
عمررضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة أول 1949 ص 174 جزء ثالث ص 1011.
(2) لم نتبين من قراءة هذه الكلمة، فلعلها الصنير، نوع من الشجر؟

سنة ثلاث وستين وخمس مائة

خبر تجديد البيعة فيها والاسمية بأمير المؤمنين[1] لسيدنا الإمام أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنهم [197] قال المؤلف : في أول هذه السنة جمع الله القلوب بخُلُوص الضمائر ، الموذنة بالسعود والفتوح والبشائر ، من الآراء الموفقة ، والنفوس المصفقة ، بتجديد البيعة والتَّسريح الإسمية المستحقة لسيِّدنا ، فكمل ذلك بإجماع الموحدين ـ أعزهم الله ـ واستسعادِهم لـدَيْه ، فنفذ الأمر أدامه الله بكتاب كريم الى السيد الأسنى أبي ابراهيم إسماعيل بن الخليفة رضي الله عنه بمدينة إشبيلية معلماً فيه من البشر واليُسْر ما أوْفَى على التَّكميل والتَّتميم بما اتفق من اجتماع الرأي السعيد ، والفعل السديد ، الذي اجتمعت عليه آراء الموحدين أعزهم الله وكانوا في ذلك من الله تعالى على يقين ، وحق مبين ، من تجديد ما ذكرتهُ من البيعة

(1) كان التلقيب بأمير المؤمنين في صدْر الإسلام خاصاً بالخليفةِ في المشرق من عمر بن الخطاب الى بني أمية إلى بني العباس من بعدهم، فلما قام عُبَيْد الله المهدي أول ملوك العبيديين بأفريقية تسمى بامير المؤمنين لأنه كان يرى أنه أحقُّ بالخلافة من بني العباس المعاصرين له في المشرق، وتبع صاحبُ الأندلس عبد الرحمن الناصر الأموي عبيدَ الله المهدي ورَأى أنه ـ وسلفه كان بالمشرق ـ أحق بالخلافة، ومعلومٌ أن كلاّ من العبيدي والأموي ـ قريشي من عبد مناف على ما في فاطمية الأولين وعلويتهم من الكلام، وبَعْدَ هذا لم يجرؤ أحدٌ على أن يستحوذ على هذا اللقب سواء ملوك العجم بالمشرق، أو ملوك البربر بالمغرب اعتباراً للحديث: «الخلافة في قريش» فلما ظهر يوسف بن تاشفين وعظم سلطانه واتسعت مملكته بعث بوَفْدٍ لبغداد لدَى الخليفة وسمّى نَفْسه بأمير المسلمين، ولكنه ـ رعياً للخليفة ـ لم يتسوّر على التلقيب بأمير المؤمنين، فلما ظهر الموحدون رأوْا منْ حقّهم أن ينالوا هذا اللقب اتباعاً لما فَعَله الصحابة «كما تقول الرسالة الرسمية، أولِما يستحقه اعتباراً لفتوحاته، ومبانيه ورغَد العيش على أيامه»، وهكذا كان أول من فعل ذلك منهم عبد المؤمن منذ سنة 528 وتبعه على ذلك ابنه أبو يعقوب سنة 563 كما يقول ابن صاحب الصلاة وكما يقول ابن خلدون:

Ambrosio Huici: Un Fragmento inédito de Ibn Idari Hes Tamuda vol II 1961. p 61.

العبر ـ سادس ص 494 ـ الاستقصا ص 52 - 98 - 99 ـ انظر التعليق رقم 1 ص 186.

الدكتور حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام، المجلد الأول طبَعة خامسة ص 438 - 439. راجع صفحة 202 - 209 من المن بالإمامة.

الرضْوَانية ، والإسمية الإمامية ، للإمام أبي يعقوب سيدنا خَلَّد[1] الله ولعقبه السَّعْد والتمكين ، ويأمر في الكتاب الكريم أن يأخذ النَّاس بإشبيلية وجميع الموحدين من الذين بها وبلاد الأندلس التي تحت طاعة التوحيد أدامه الله كقرطبة وأغرناطة ومالقة وغرب الأندلس لعقْد البيعة الرضوانية التي بها يكمل دينُهم ويصْدُق يقينهم ، وبتَجْديدها على أوْفَى الشُّروط من عُقُودها ، فوجَّه السيد أبو إبراهيم إسماعيل نسخة الكتاب الواصل اليه من الحضرة الإمامية الى الشيخ الحافظ المرحوم : [198] أبي عبْد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم باغرناطة فجمع الحافظ أبو عبد الله الناس بها على الاستيفاء والاحتفال ، والوفور والكمال ، وقُري عليهم الكتاب الكريم بمحضرة فوق المنابر ، واتصل خبره عند الغائب والحاضر ، فبادروا الى البيعة الرضوانية وقَبولها والتَّسْريح بالإسمية الإمامية ،وتنسموا ريحَ السَّعادة من قبولها ، وصادف هذا النبأ السارُّ من جوانح الموحدين وجميع جوارح الصِّنْف الأندلسي أفئدةً تهوي اليه قبلاً ، وتوجد الى رضا الرحمن في التزامها صدقاً مخلصاً لهم وعملاً ، لمثابتها الواضحة ، وتجارتها الرابحة ، ولِمَا يُرْجَى عند الله تعالى من الجزاء على الأعمال الصالحة . وكتب أهل إشبيلية بيعتهم وفيها إشْهادهم على أنفسهم بخُطُوط أيْديهم وأسمائهم بما هذا نصُّه ، ووجهها السيد أبو إبراهيم إسماعيل صحبة كتابه الى الحضرة العلية مع بعض أشياخ إشبيلية ، ونسخة البيعة هذه من إنشاء أحمد بن[2] محمد :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم ، الحمد لله الذي جعل الإمامة قواماً للحق ، ونظاماً للخلق ، وتماماً على الذي أحسن

(1) هنا فضاء ولعل كلمة: (له) أنسب به.
(2) لم يذكر ابن صاحب الصلاة نعتاً ولا نسباً ولا لقباً لأحمد هذا، ولم يردْ اسمه أكثر من هذه المرة، وأظن أنه يعني به أبا العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن مقدام الرعيني الاشبيلي ممن كان صاحب أبا بكر ابن العربي في وُرُوده على مراكش لبيعة عبد المؤمن سنة 542، فقد ظل بعد عودته على صلةٍ بالسادة الموحدين وقد توفي أواخر سنة أربع وست مائة. ابن القاضي: جذوة الاقتباس ص 72.

برعاية العدل والرفق ، وأوْجَبَ الاعتِصام بطاعتها ، والانتِظام بجماعَتِها والصَّلاةُ على محمد نبيِّه المنبعث بنور الحق الساطع الأضواء ، المبلغ [199] عن الله سبحانه بأكمل وجوه التَّبليغ والإنْهَاء ، وعلى آله وأصحابه الذين والوه بالنَّصر والإيواء ، والرضا عن الإمام المَعْصُوم ، المهديّ المَعْلوم ، المخصوص باثرة الاصطِفَاء والاجْتِباء ، والدعاء لسيّدنا ومَوْلانا أمير المؤمنين الخَليفة المرتضى ، متمم أنوار الهُدَى ، ومجلّي غياهِب الظلماء ، وللإمام الأعدَلِ الأهْدَى سيِّدنا ومَوْلانا أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين بدَاوم النَّصر والاستيلاء ، واستصحاب الظُّهُور والاعتِلاء ، أمّا بعد فإنَّه لما اجْتَمَعَتْ طَائفةُ التَّوحيد ، وهُمُ الذِين تحضُرهم من الله حاضرةُ التَّوفيق وينظر اليهم نَظَر الاقتِداء والاهتِدَاء ، مَنْ وراءهم مِن أهل الحقِّ والتَّحْقيق ، عَلَى تَجْدِيد البَيعة المُبَاركة لسيِّدنا ومَوْلانا أمير المؤمنين أبي يَعْقُوب بن أمير المؤمنين خَلَّد الله أمرهم ، واعزَّ نصرهم بالاسم المبارك الكريم الذي أول من دعا به الفاروق رضوان(1) الله تعالى عليه ، فعرف الله من يمنه ما فتح لِملَّة الإسلام شرْقاً وغرباً ، وأحال الدَّلْوَ بيد ساقيهم فاسْتَحالت غرباً ، حتَّى ضَرب الدِّين بجرانه ، والقى النَّاسُ بعَطَن(2) بَيْن يمنه وأمانِه ، فجدَّدنا من بيعته على الإسمية المباركة فرضاً أوجبَه الشَّرعُ وجوبَ الإلزام ، واقتضَى الوفاء شُرُوطه المؤكَّدة على الكمال والتَّمام ، فبايَعْنا عَلَى السَّمْع والطَّاعة بيعَة إيمان وأمانة ، وعَدْلٍ [200] وعبادة ، والتزمْنَاها في اليُسْر والعسر ، والمنشط والمكره ، واعتقدناها عصمة ديننا ، وذخر معادنا ، وتمسكنا منها بالعُروة الوثقى والعصمة

(1) روى البلاذري أن بلالاً كان يقف بباب رسول الله ويقول السلام عليك يا رسول الله. . . فلما ولي أبو بكر كان المؤذن يقف ببابه ويقول: السلام عليك يا خليفة رسول الله. . . وفي خلافة عمر بن الخطاب كان المؤذن يقول: السلام عليك يا خليفة خليفة رسول الله لكنه منعاً لتكرار لفظ خليفة بالنسبة إلى من يتولى أمور المسلمين من الخلفاء بعد أبي بكرٍ أمَرَ عُمَرُ بن الخطاب أن يستبدل هذا اللفظ بعبارة: أمير المؤمنين.
حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام أول ص 438 - 439.

(2) العَطَن: مبرك الابل حول الماء. وهذا إشارة إلى حديث الصحيحين عن ابن عمر وأبي هريرة في الرؤيا النبوية: «حتى رَوَى الناس وضربوا بعَطَن» مثل يضرب لاتساع الحال وكثرة الفتوح.

التي مَن تعلَّق بحبها وآوى الى ظلها فقد اعتصم بالجانب الأمنع الأوْقَى ، علماً أنها البيعة الرضوانية ، والدعوة التي تتكفل بنصرها وإعلاء أمرها العناية الربانية . عَلَيْنا بذلك عهدُ الله الأوكد الألزم وميثاقه الأغلظ الأعظم ، وذمَّته التي لا يُقطع حبلُها عَلى مُرُور الزَّمان ولا يُصْرَم ، مستبصرين في هذه البيعة الكريمة بنُور الاهتِدَاء ، سالكين في التزام الطَّاعة المحجَّة البيضاء ، عارفين ما أمر الله سبحانه من طاعة الخلفاء ، والله سبحانه يحفظ بها اكناف الإسلام ، ويجعلها كلمةً باقيةً على مرور الأيام ، بفضل الله ويمنه . وعلى مُضمَّن ما نص فوق هَذا التزمَ أهلُ إشبيلية كافَّة. وكتبوا على ذلك شهادتَهم في النّصف من جمادي الأخيرة سنة ثلاث وستين وخمس مائة .

وكذلك كتَب أهل أغرناطة بيعتَهم أيضاً وفيها إشهادُهم على أنفسهم بخطوط أيديهم وبمحضر الشيخ الأجل الحافظ المرحوم ابي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم بما هذا نصه : [201] ووجهها الشيخ المرحوم المذكور مع بعض أشياخ أغرناطة الى الحضرة العالية ، وبكتابه الى أمير المؤمنين أبي يعقوب رضي الله عنه ونسختها ما يذكر :

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمد وآله وسلم الحمدُ لله الذي جَعَل الإمامة عصمةً للدِّين ، ونعمةً سابقةً منه تَعالى للمُسْلمين ، ورحمةً أراد بها - جلّ جلاله - هدي المهْتَدين ، وقوام المُؤمنين ، نَظم بِها عقْدَ الأنام ، وتمَّمَ بارتباطها عَقْدَ الإسلام ، وأظهَر بالتِزَامِها، بركةَ تمامِها وانْتِظَامِها. والصَّلاة على محمَّدٍ نبيّه ورسوله الذّي ابتَعَثَه برَحْمَته ، وأيَّده بقُدسِه وقدْرَته ، وأعانه على إعلاء أمره وكلمته ، وعلى آله وصحابتِه الذين آمنوا بِه ونَصَروهُ ، وآزَروه وعزروه ، إذ اصطفوا إمامُهم ، وقدَّمُوه وأخْلَصوا لله تعالى في طاعته ومناصَحته أفهامهم ، وأعملوا في نصرته وحمايته إقدَامَهُم وأقدامهم ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، الذي أظهر الحق بعد دُرُوسه ، وأطلع للإيمان ساطع أقماره وشموسه ، والدعاء لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين خليفته المرتضى الذي أشْرَقت أنواره ، وظهرت على